٧١-سورة نوح

وزارة المعارف العمومية

# تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرين من الكتاب الكريم


تأليف العالم الجليل

## الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

علي محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم ( جامعة فؤاد الأول بالقاهرة )





المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦هـ - ١٩٤٧ م

# سورة نوح مكية

وهى ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ
وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾

(أن) فى قوله (أن أنذر) وفى قوله (أن اعبدوا) تسمى أن التفسيرية ، وشرطها أن يتقدّمها فعل فيه معنى القول دون حروفه ، وقد تقدّم (أن) الأولى الإرسالُ ، وإرسال الله النبى إنما هو تحميله قولا إلهيا يبلغه قومه ، ويؤيد ذلك قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : ﴿ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أنذر قومك ﴾ من دون (أن) على تضمين (أرسلنا) معنى القول ، فكأنه قال "قلنا أنذر" وقد تقدّم (أن) الثانية قولُه (نذير) ، وهو من الإنذار الذى معناه التحذير والتخويف بالقول . ويصح أن تجعل (أن) فى الموضعين مصدرية لا تفسيرية ، وتكون مجرورة بالباء ، والتقدير أرسلناه بأن أنذر أى بقولنا له أنذر ، وإنى نذير بأن اعبدوا أى بقولى لكم اعبدوا .

وقوله [مبين] فى صفة النذير من [أبان] اللازم إذا اتضح وانكشف ، فمعنى ﴿ نذير مبين ﴾ نذير بَيِّن واضح البرهان لا لَبْس فى صدق إنذاره ، أو من أبان المتعدى أى نذير مظهر لأمره ، وكاشف عن سره ، ومعرب عن نفسه أنه نذير صادق مخلص ، وهكذا يقال فى أخواتها الواردة فى القرآن : (عدوّ مبين) ، (ساحر مبين) ، (ثعبان مبين) ، (خصيم مبين) ، (عربى مبين) ، (إفك مبين) ، (غوى مبين) .

يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ

وقوله تعالى : ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ أوّل ما يتبادر للنفس أن (مِن) هنا لإفادة التبعيض أى يغفر لكم بعض ذنوبكم ، وقد حمل جمع من المفسرين الآية على هذا المعنى ، لكن يرد عليه أنّ قوم نوح إذا آمنوا به يغفر الله لهم جميع ذنوبهم لا بعضها ، لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، وأُجيب عن هذا بأن فى التبعيض إيماء وتنبيها لقوم نوح إلى أن ما يُغفر لهم من الذنوب إنما هى الذنوب التى كانت وقعت منهم قبل أن آمنوا ، أما ما يقع بعده فهو لاصق بهم ، وتلزمهم التوبة منه ، فالذنوب التى تغفر لهم بالإيمان إنما هى بعض من بعض من جملة ذنوبهم الصادرة منهم فى أيام حياتهم ، أو يقال إن الله يغفر لهم بعض ذنوبهم وهى التى تتعلق به تعالى ، أما ذنوبهم الأخرى المتعلقة بحقوق العباد فعليهم الاستحلال من أربابها .

وأرى أن (مِن) متعلقة بيغفر على تضمينه معنى "التحليل" يقال "حلَّل فلان فلانا" إذا جعله فى حِل مما ارتكب وأذنب ، والمعنى هنا أن الله يغفر لقوم نوح إذا أطاعوه جاعلا لهم فى حِلّ من ذنوبهم التى كانوا ارتكبوها .

وليس هذا فقط بل إنه تعالى يدرأ عنهم عذاب الاستئصال كالطوفان ونحوه إذا هم آمنوا بنوح ، ويؤخرهم إلى حين حلول آجالهم فيموتون الموتة الطبيعية التى كتبها الله على بنى آدم ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ويؤخركم إلى أجلٍ مسمى﴾ و[المسمى] المقدّر والمقرر فى علم الله تعالى .

و[نوح] عليه السلام أقدم نبى رسول ذكره الوحى ووصف جحود قومه وتكذيبهم له وما كابده منهم من العناء والإعنات حتى أغرقهم الله بالطوفان ، ولم يذكر عن نبى قبله ما ذكر عنه من هذا القبيل ، وما ذكر عن أبيه وأبى البشر آدم عليه السلام إنما هو شرح لكيفية خلقه وعرض أمره على الملائكة وما جرى له ولزوجه فى دار الجنان ، ثم هبوطهما ، ولم يذكر لنا الكتاب من أطوار ذريته وأحوالهم من حيث الإيمان والجحود والطاعة والمعصية سوى ما كان من منازعة ابنيه قابيل وهابيل ، ثم قتل الأول للثانى بغيا وحسدا . وقتله له أول مثال من أمثلة الظلم وقع فى البشر وقصه علينا الوحى .

وجاء فى كتب الأوائل أن فى زمن " أنوش بن شيث بن آدم " ابتدأت عبادة الأوثان ، وجعل النـاس يسمون المخلوقات آلهة ، فكان " أنوش " يجمع أهل بيته وذويه للصلاة والتسبيح وعبادة الله وحده . وفى زمن إدريس عليه السلام — وهو أخنوخ بن يارد بن مهلائيل بن قينـان ابن أنوش — كثر النفاق ، وانغمس الناس فى الآثام، فأنزل الله عليه وحيا فى سِفْر ، هو صحف إدريس المشهورة، ولم يبق من ذلك السفر سوى فقرة يقولون إنها وجدت فى أطواءِ بعض الكتب المقدّسة ، وهى : " وقد تنبأ أخنوخ على هؤلاءِ الأئمة فقال : هو ذا الرب يأتى فى ربوات قدّيسيه لينفذ القضاء عليهم ويبكت جميع المنافقين على أعمال نفاقهم " .

أما فى زمن سيدنا نوح — وهو ابن لامك بن متوشالح بن إدريس — فقد شاع الكفر واشتدّ العصيان فى البشر ، وأكثروا من الظلم والبغى والفساد ، فكان من خبرهم مع نبيهم نوح ما قصه الله علينا فى فاتحة هذه السورة وفى غيرها من سور القرآن .

وذُكر فى الأسفار القديمة أن نوحا ولد لسنة ١٨٢ من عمر أبيه " لامك " ، ولسنة ١٠٥٦ لجده الاكبر آدم عليـه السلام . ومعنى نوح : الراحة والتعزية . وكان عمر نوح ٥٠٠ سـنة لمـا أخذ يلد أولاده ساما وحاما ويافث . وكان عمره ٦٠٠ سـنة لمـا حصل الطوفان . وجميع أجداد نوح ولدوا فى زمن جدهم الأكبر " آدم " . أما هو فلم يولد فى زمنـه ؛ فأجداده المذكورون أمكنهم أن يعاشروا جدهم آدم ، ويتلقوا الأخبـار الصحيحة منـه عن إبداع العالم وما علمه الله إياه ، وكثيرون منهم ولا سيما "متوشالح" و "لامك" عاشروا ابنهم "نوحا" سنين متطاولة ، فلقنوه ما تلقنوا هم من جدهم آدم . ولمـا كان نوح قد عاش بعد الطوفان ٣٥٠ سـنة أمكن حفيده إبراهيم الخليل أن يعيش معـه نصف قرن ونيفا ، ويتلقى عنه الأخبار الصادقة أو أن إبراهيم تلقى ذلك عن جده سام إن لم يكن تلقاه عن نوح. ولقنه إبراهيم لأولاده إسحق ويعقوب ثم موسى بسلسلة متصلة متقاربة الحَلَقات . وبعد أن نجا نوح من الطوفان جعل يحرث الأرض ويغرسها كروما كما كان يفعل آباؤه . اهـ .

هـذا منخول ما جاء فى الكتب القديمة من خبر نوح عليه السلام . ونحن — معشر المسلمين — لا نصدقها ولا نكذبها ، بل نكل أمرها إلى العلم الحديث ، فهو الذى يمحّصها ويميز غثها من سمينها.

ويظهر من هـذه الآيات التى افتتحت بها سورة نوح ، ومما تضمنته من خبره ومحاورته لقومه وشكايته إلى الله من بغيهم وسوء صنيعهم — أن دعوته كانت مؤسسة على ثلاثة أركان :

( الركن الأول ) ترك عبادة الأصنام : ( ودّ ) و ( سواع ) و ( يغوث ) و ( يعوق ) و ( نسر ) التى كان يعبدها أهل ذلك الزمان من دون الله ، فكان نوح يأمرهم بخلعها وعبادة الله وحده ، وهذا معنى قوله (أن اعبدوا الله) .

(والركن الثانى) تقوى الله واجتناب المعاصى والذنوب والفواحش التى تفسد عليهم صحتهم وأخلاقهم وآدابهم ، وتفكك روابط الألفة وعُرا النظام بينهم ، وهذا معنى قوله (واتقوه) .

( والركن الثالث ) إطاعة ولى الأمر فيهم وهو نوح عليه السلام نفسه ، وهـذا معنى قوله (وأطيعون) .

فالدعوة السماوية التى هى أوّل ما أنزل على البشر ، وبلغ إليهم ، هى مطوية فى ثلاث كلمات فقط : إيمان ، تقوى ، طاعة : بالإيمان ينتظم أمر عقائد الأمة فتسلم من الخرافات والأوهام ، وبالتقوى ينتظم أمر أخلاقها وآدابها فتسلم من السقوط والفساد ، وبالطاعة ينتظم أمر اتحاد كلمتها وعلو شأنها فتسلم من الانحلال والضياع .

وما زالت الأمم على سُلَّم هـذه الأركان السماوية تعلو فى الحياة الاجتماعية وتسقط ، وترتقى فى العزة والغلبة وتهبط . وآية ذلك التاريخ ، فهو الشاهد العدل ، وإليه فى هـذه المسألة القول الفصل .

ومحصل معنى الايات : أن الله أرسل نوحا إلى قومه ، وكلفه أن يبلغهم أمره السماوى وأن يذعنوا له ، وإن لم يفعلوا فإنّ عذابا أليما يوشك أن ينزل بهم ، فجاء نوح قومه وبلغهم أمر الله بأن يعبدوه وحده ، ويتقوه ، فيدَعوا المعاصى ، ويطيعوا رسولهم فيما يأمرهم وينهاهم ، وأنهم إن فعلوا ذلك غفر لهم ذنوبهم ، وأخر عنهم العذاب الذى أوعدوا به ، فيعيشوا أعمارهم ، ويتمتعوا بالحياة إلى آجالهم .

إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾

وكأنّ نوحا يعهد من قومه الريب والشك فى أن لهم أعمارا محتومة ، وآجالا لله معلومة يموتون عندها ، ومن ثم أتبع قوله (ويؤخركم إلى أجل مسمى) بقوله : ﴿ إنّ أجل الله ﴾ المسمى والمقدّر لكل حى من بنى البشر ﴿ إذا جاء ﴾ وقته وحينه ﴿ لا يؤخر ﴾ عنه بل ينفذ طبقا للمشيئة الإلهية .

ثم أظهر نوح ، أسفه من أنّ قومه غلوا فى الجهل والعناد حتى أنكروا هذه القضية البديهية وهى أنّ لكل أجلٍ كتابا فقال : ﴿ لو كنتم تعلمون ﴾ أى ليتكم استعملتم عقولكم ، وتدبرتم الأمر بها فاهتديتم إلى ما قلت لكم ، وفى هذا التعبير من التوبيخ والتعيير ما فيه .

ويصح ألا يكون المراد بالأجل فى قوله تعالى : ( إنّ أجل الله إذا جاء لا يؤخر ) أجل العمر المسمى المذكور قبله ، بل يكون المراد به أجل العذاب المهيأ لهم فيما إذا لم يؤمنوا بنوح ، فإن هذا العذاب له أجل ووقت معين ، لا يتأخر عنه ولا يتقدّم ، وهو الذى يجهله قوم نوح ويمارون فيه ، أما أجل الموت الطبيعى الذى يدور كأسه على كل واحد من بنى آدم فمن المستبعد أن يجهلوه إلى حدّ أن يماروا فيه وفى أنه إذا نزل بهم لا يؤخر ، فيكون معنى قول نوح (لو كنتم تعلمون) لو كنتم تعلمون ما لله من نفوذ المشيئة والحول والقدرة فى إنزال العذاب بمنكرى وحيه ومكذبى أنبيائه .

ذكر فى الآيات السابقة كيف كان نوح يدعو قومه إلى عبادة الله وتوحيده ، ويعظهم ويخوفهم بأسه وعذابه أن يحل بهم إن هم لم يؤمنوا ، وحكى هنا شكايته إلى ربه عنادهم وتماديهم فى تكذيبهم وجحودهم ، وقال إنه كان يدعوهم ﴿ ليلا ونهارا ﴾ أى مستغرقا جميع الأوقات ، فكان كلما زادهم دعوة وحضا على الإيمان زادوه ﴿ فرارا ﴾ وهربا وتفلتا منه يمينا وشمالا ، فلا يصغون إليه ، ولا يجتمعون عليه .

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾

ثم وصف نوح نفورهم ، وصوّر حالة إعراضهم أبلغ تصوير فقال : إنهم كانوا إذا دعاهم إلى الإقرار بوحدانية الله والعمل بطاعته ﴿جعلوا أصابعهم فى آذانهم﴾ لئلا يسمعوا قوله ، وهذا شأن المكابر المعاند الذى يعلم أن للحق سطوة على الوجدان ، فهو يخشى أن ينفذ منه نور إلى قلبه ، فتنزع منه نفسه ، ويتنغص له عيشه ، ولذلك تراه يجتهد فى أن يبتعد عن الداعى إلى الحق ، وما كان قوم نوح يكتفون بالفرار منه تارة ، وبسد مسامعهم تارة أخرى ، بل هم أحيانا كانوا إذا رأوه ﴿استغشوا ثيابهم﴾ ، أى تغطوا بها ، ووضعوا أردانهم وفضول أكمامهم على وجوههم ورءوسهم كيلا يراهم هو فينبرى لهم بالدعوة والنصح ، أو كيلا يروه هم فيتأذوا برؤيته ، وسماع دعوته .

وسين [استغشوا] إمّا للطلب ، أى طلبوا من ثيابهم أن تغشيهم وتغطيهم ، أو للجعل والصيرورة ، أى جعلوا ثيابهم أغشية وأغطية لهم .

ثم إن نوحا أخبر أن قومه يفعلون ما ذكر على وجه الدوام والثبات بحيث لم يعد يرجى منهم أوبة أو توبة ، وهذا معنى قوله : ﴿وأصروا﴾ . يقال : "أصر على الأمر" إذا لزمه وثبت عليه ، وأكثر ما يستعمل فى الإكباب على الشرور وسيئات الأعمال .

أمّا إباء القوم ونفرتهم من نوح وسماع دعوته فسببه كبرهم وعزتهم وتعاظمهم فى نفوسهم ؛ فهم يرون نوحا دونهم منزلة ومقاما ، فكيف يطيعونه ، ويخضعون له ، ويصبحون فى عداد أتباعه ؟

وقد أشار نوح بتوكيد الفعل بمصدره مذ قال : ﴿استكبروا استكبارا﴾ إلى فرط كبرهم ، وغلوهم فى عتوّهم .

ومن لطيف تعريضه بحالتهم قوله : ( وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم ) وهو صلوات الله عليه ما كان يدعوهم لأجل المغفرة ، وإنما كان يدعوهم لأجل الإيمان بالله ؛ فاذا آمنوا به غفر لهم ذنوبهم ، لكنه طوى ذكر الإيمان ، وجعل دعوتهم لمحض مغفرة ذنوبهم ، وفى مغفرة ذنوبهم فوزهم وسعادتهم ، فكم تكون الجهالة مستحكمة فى نفوسهم إذا كانوا يسدّون مسامعهم ، ويغطون على عيونهم ؛ كيلا يصلوا إلى السعادة ، وهى بين أيديهم وتحت أشعة أبصارهم .

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾

قال نوح فى الآية السابقة : (رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا) وقال هنا : ﴿ثم إنى دعوتهم جهارا﴾ عاطفا بثم ، فأفاد أن هذه الدعوة الجهرية كانت غير الأولى ، وأن بينها و بينها بعدا وتفاوتا ؛ فإذا تقرر أن الثانية كانت جهارا دل ذلك بالطبع على أن الأولى كانت سرية ، فهو يقول : إنه فى أول الأمر كان يَتَكَتّم فى عرض الدعوة على قومه ؛ فكان يدلى إليهم بالمناصحة سرا ، مستغرقا فى ذلك جميع وقته ، ليله ونهاره ، كما هو شأن الداعى الحريص على بث دعوته ، الحاذق فى أدائها العالم بطرق تبليغها ، يتحين لها الفرص ، ويختار لها الأوثق فالأوثق من الرجال ، ولا يتسرع فى إفشائها خشية أن يُكاد لها ، وتُقام العواثير دونها ، ومع كل ذلك لم تنجح دعوة نوح فى القوم لفرط عتوهم ، وتحجر العناد فى نفوسهم ، وهذا ما حمل نوحا على سلوك طريق آخر فى الدعوة وهو مصارحتهم بها ، وتبليغهم إياها جهارا من دون تكتم ولا خوف ولا تقية ، وهو معنى قوله : (ثم إنى دعوتهم جهارا) ؛ إذ ربما كان فرط تكتمه فى أمره ، واستخفائه بدعوته ، يجعلهم يظنونها باطلة ، و إلا فما الذى يمنعه من الجهر بها ؟ أو يظنون أنه عاجز جبان عن تبليغها ؛ فهو يكتمها خشية إيقاعهم به ، وهـذا مما يزيدهم نفورا وعنادا ، ومن ثم قام نوح عليه السلام يصدعهم بدعوته صدعا ، شأن الواثق من صدقها ، المعتمد على ربه فى حياطته وحياطتها ، كأنه يقول : هاكم دعوتى أبلغكموها على رءوس الأشهاد ، فإن كان لكم سلطان بيّن على بطلانها فهاتوه ، أو كنتم تريدون قتلى وصدّى بالقوة فافعلوه .

إذا لم يكن لدى الداعى جرأة وشجاعة أدبية فى عرض دعوته فإن دعوته تموت مهما كان واثقا من صدقها ، بل مهما كانت هى حقا فى نفسها ، وكم دعوة حق ماتت فى مهدها ، وكلمة صدق خمدت بعد وقدها [١] — بسبب تهيب الداعى المقاومين له ، ومانقصه من الشجاعة الأدبية فى تحمل الكوارث والشدائد التى تعترض سيره ، ومن ثم جعل زعماء المدنية الحديثة الحرية الفكرية ركنا من أركان مدنيتهم ، وعمادا قويا لحضارتهم ، ولو قال قائل : إن مدنية الغربيين ، وظهور النوابغ فيهم ، وعروجهم فى العلم والفن والصناعة والاختراع ، ثم فى العزة والصولة والغلبة إلى الأوج الذى وصلوا اليه اليوم — إنما هو أثر من آثار الحرّية الفكرية — ما كان غاليا ولا مبالغا .

(١) وقدها مصدر وقَدَت النارُ اشتعلت ، وكل شىء يتلألأ فهو يقد ، حتى الحافر إذا تلألأ بصيصه .

ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠

ولما صدع نوح قومه بدعوته هذا الصدع ، وباداهم بالنصيحة هذه المباداة — اضطربوا وحاصوا ، وعلموا أن الأمر جدّ ، وأن نبيهم غير عاجز ولا وكِل ، وأنه على بينة من أمره ، وقوة فى عزيمته ، وأنهم إذا تهاونوا فى شأنه ، واستخفوا بدعوته — ربما علقت كلماته بنفوس بعض أبنائهم فيولَعون بها ، ويشبون عليها ، وحينئذ يعظم أمرها ، ويستفحل خطبها فصاروا يداورون نوحا عليه السلام ، ويحاولون إسكاته وصرفه عن الجهر إلى المذاكرة معه فى السر ، فلم يأب نوح ذلك عليهم ، وجعل يصف لهم دعوته ، ويبلغهم أمر الله فى مجالس خاصة ، يعقدونها بينهم ، لكنه مع هذا بقى مصرا على الجهر بالدعوة والإعلان بها فى المجامع ، وحيث يكون الدهماء والجمهور ، وهذا هو الطور الثالث من أطوار نوح فى دعوة قومه ، وتبليغه رسالة ربهم إليهم . وقد أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا﴾ .

والعطف بثم يشعر بأن الإعلان والإسرار الأخيرين كانا طريقة ثالثة سلكها نوح فى الدعوة ، غير طريقة السر المحضة ، وغير طريقة الجهر المحضة ، فكان فى الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة مرة حيث يصلح الإعلان ، ويسرها لهم أخرى حيث يتوقع نفع الإسرار .

ثم بين ما وعظهم به سرا وعلانية فقال : ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا الخ﴾ أتاهم من طريق القلب ، وتحريك العواطف ، والتذكير بأن ما هم فيه من انحباس الأمطار ، وما حرموه من الرزق والذرية وجدب الأرض وخلوها إنما سببه كفرهم بالله الذى بيده وحده إرسال المطر ، وإغداق الرزق ، والإمداد بالأموال والبنين ، وأنه لا ينبغى لهم أن يكفروا بهذا الإله الذى يقدر أن يمنحهم أمثال هذه النعم ، ويعبدوا آلهة أخرى اخترعوها ، لا تضر ولا تنفع ؛ فقوله : ( استغفروا ربكم ) ، أى آمنوا به ، واطلبوا منه أن يصفح عما فرط منكم ، فالأمر بالاستغفار يقتضى أمرا بالإيمان ؛ لأنه لا معنى لأن يطلب الجاحد من الله غفران معاصيه وهو مقيم على كفره ، وتكذيب نبيه . وقد يقال فى معنى ( استغفروا ربكم ) اطلبوا منه تعالى أن يغفر لكم الذنب الأكبر وهو الشرك به وعبادة غيره ، وليس معنى هذا سوى الإيمان بالله وترك الشرك ، ويلائم هذا المعنى قوله بعده : ( إنه كان غفارا ) ، أى إن ربكم من صفاته الرحمة فهو يرحمكم ، ويغفر لكم ما مضى من شرككم به وعبادة الآلهة غيره ، وإنكم إن تؤمنوا به وتستغفروه ﴿يرسل السماء عليكم مدرارا﴾ ، و ( يرسل ) مجزوم جوابا لاستغفروا .

يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾

و ( السماء ) فى قوله ( يرسل السماء عليكم ) المطر . وهذا الاستعمال معهود متداول لدى أهل اللسان ، بل تطلق ( السماء ) أحيانا على الكلأ الذى ينبت بهطول المطر عليه . وكل هـذا تجوّز وتوسع فى كلمة ( السماء ) التى معناها فى الأصل ما أظل الإنسان من جهة العلو . وقد جاء المعنيان فى قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فقوله "نزل السماء" أى المطر ، وقوله "رعيناه" أى رعينا السماء بمعنى الكلأ والعشب الناتج عن المطر . وإعادة ضمير "رعيناه" على السماء بغير معناها الأول نوع بديعى يسمى الاستخدام . و[ المدرار ] الكثير الدرور الغزير الانسكاب . و[ الإمداد ] الإعانة بالشىء والتمتيع به على وجه الإفادة والانتفاع . و[ الجنات ] البساتين ذات الأشجار المظلة ، المثمرة المغلة .

ويفهم مما قاله نوح لقومه أن قومه كانوا مجدبين ممحلين محارَفين مشئُومين ، وأن فساد أَمرهم ، وسوء أخلاقهم ، وغلبة الذنوب عليهم ، وإخلادَهم إلى البطالة والكسل ، وجهلَهم بشُئون الزراعة والصناعة وأفانين العمل — كل ذلك أدّى إلى حرمانهم مما كان فى طاقتهم أن يحصلوا عليه لو آمنوا وأطاعوا ، واتبعوا الشرائع التى أتاهم بها نبيهم نوح من عند الله ، والتى يصلح بها شأنهم ، وينتظم أمرهم ، وتكثر ذريتهم ، ويستبحر عمرانهم .

فبالإيمان بالله ، وبالعمل بشرائعه ، وبطاعة نبيه — يتدربون على العمل ، وإنشاءِ البساتين ، وغرس الأشجار ، وحفر الترع والأنهار ، وبذلك تغزر محاصيلهم ، وتكثر أرباحهم ، وتتوفر مكاسبهم ، ويغدودق الرزق والمال بينهم ، وبترك المعاصى والفواحش والفجور ينتظم أمر البيوت ، وتتوثق روابط الألفة والمحبة بين أفراد الأسرة ، ولا سيما بين الزوجين ، فيطيب إذ ذاك العيش ، وتتوفر دواعى الهناء ، ويبارك الرب سبحانه فى الذرية والبنين .

كانت هذه الأمة التى هى من أقدم أمم التاريخ محرومة من كل هذه البركات ، لكنها كانت شـديدة التشوّق إليها ، والحرص عليها ، فجاءها نبيها نوح يرشدها ويعلمها ، ويبلغها عن خالقها ما به صلاحها ونجاح طِلبتها ، ويؤكد لها أنها إن أطاعته انتقلت بإذن خالقها إلى طور فى الاجتماع أكمل ، ودخلت فى دور من أدوار الحياة أفضل وأمثل .

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾

بعد أن أطمع نوح قومه فى الآيات السابقة بالحصول على بركات السماء وخزائن الأرض إن هم آمنوا بالله الذى بيده مفاتيح هذه الخزائن، ومنه وحده تستمد تلك البركات — عاد فهز نفوسهم وعطفها نحو الإيمان، بأسلوب آخر من أساليب البيان، فقال: ﴿ما لكم لاترجون لله وقارا، وقد خلقكم أطوارا؟﴾.

والعمدة فى هذا الأسلوب استعمال العقل والاستدلال على وحدانية الله تعالى من طريق النظر والتفكير فى خلق أنفسهم، ثم فى خلق هذه الكائنات العلوية والسفلية، كما كان العمدة فى أسلوب الآيات الماضية هز القلب وتحريك عواطفه نحو شكر المنعم الذى فى الشكر له والإيمان به استزادة من تلك النعم، وتعجيل فى الوصول إليها.

و[الرجاء] الأمل. وقد عطف عليه فى قول كعب: "أرجو وآمل أن تدنو مودتها". وقد تضعه العرب فى موضع الخوف إذا صحبه جحد كما قال أبو ذؤيب "إذا لسعته النحل لم يَرْجُ لسعها" يصف مشتار العسل يقول إنه لايخاف لسع النحل إذا هى لسعته لاعتياده ذلك منها.

والرجاء فى لغة هذيل وخزاعة ومضر المبالاة يقولون لم أرج يعنون لم أُبَلْ.

و[الوقار] فى الانسان الرزانة والحلم يقال: "وقر فلان" إذا رزن. أما الوقار فى جانب الله فبمعنى العظمة. والتوقير التعظيم. يقول نوح لقومه: ما لكم أيها القوم لا تخافون لله عظمة، أو لا تبالون عظمة الله فتؤمنوا به، ولاترهبون له جانبا فتدعوا عبادة غيره، وأنتم إذا نظرتم فى أنفسكم وفى الآفاق رأيتم من غريب صنعه، وعجيب إبداعه، ما يستدعى منكم تلك المخافة والرهبة.

والمراد [بالأطوار] ماعليه البشر فى أفرادهم وجماعاتهم من حالات الصلاح والفساد، والسعادة والشقاوة، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة: تصنيف الناس إلى هذه الأصناف، وتخصيص كل فريق منهم بحالة دون حالة، وشأن دون شأن — دليل على وجود إله حكيم مدبر مريد يخص من شاء بما يشاء.

والذى عليه الأكثرون أن المراد [بالأطوار] حالات التخليق غير المستقرة، التى يتدرج فيها الإنسان من حالة إلى حالة، وينتقل من طور إلى طور: طورا نطفة، وطورا علقة، وطورا مضغة، ثم عظما قسيا، قد كسى لحما طريا، ثم بشرا سويا، وروحا عبقريا، فتبارك الله أحسن الخالقين.

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾

نبه نوح قومه إلى النظر فى أنفسهم أولا ، لأنها أقرب إليهم ، والاستدلال بها أيسر عليهم ، ثم أمال أعناقهم إلى الآفاق ، قائلا : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ﴾ ، كأنه فى هذا الاستفهام يُعجّبهم من أمرهم فى تأخر صدور الإيمان منهم ، مع أنهم سبق لهم أن رأوا السموات ، ووقفوا على شىء من عجيب صنعها ، وتسوية طباقها ، أو أنه نزلهم منزلة العميان الذين لم يروها لغلبة الجهل والذهول عليهم .

ونفهم من ( السموات ) ما كان يفهمه منها المخاطبون الذين نزل القرآن بلسانهم[1] ، وهو ما ارتفع فوقهم من الفضاء الأزرق الذى تسبح فيه الكواكب والنجوم فى طرائقها ومداراتها . هذه الكواكب والنجوم المشاهد بعضها بالعين المجردة و بعضها بواسطة الرصد وأدوات المراقبة — لم تكن كلها فى رقيع واحد من الفضاء ، بل عرف منذ عهد نوح عليه السلام انها متفاوتة فى العلو والارتفاع ، بعضها أعلى من بعض ، كما أن بعضها أكبر جرما من بعض ، وبهذا الاعتبار كان الفضاء الذى تسبح فيه تلك الأجرام الهائلة طباقا ، طبقة فوق طبقة ، فالذى يرى السموات يشهد بعينه وعقله أنها ذات طبقاتٍ متعددة ، وقد عرفت الأمم منذ ذلك العهد أن تلك الطبقات سبع ، وأن فى كل طبقة كوكبا منيرا يدور فيها ، فأصبحت مدارا له ، وفلكا يتجلى فيه نوره ، وقد عرف نوح من قومه يومئذ أنهم بلغوا من العلم إلى معرفة تلك الكواكب السبعة ، كما عرفوا منازلها وطبقاتها ، وطرائقها ومداراتها .

والرؤية المستفهم عنها فى قوله ( ألم تروا ؟ ) إنما هى الرؤية العلمية التى تكون بالاستدلال والاكتساب ، و إعمال القياس والحساب ، وليست هى الرؤية البصرية التى تكون بمجرد العين ؛ فإن العين وحدها لا يمكن أن ترى سمواتٍ سبعا ، واحدة فوق أخرى ، و إنما ترى جَلَدًا واحدا فيه نجوم متعدّدة .

ومحصل القول أن البشر فى زمن نوح —وهو الزمن الذى عاش فيه الكلدانيون المشهورون بعلم الهيئة ورصد الكواكب وعبادة النجوم ويسمون الصابئة أيضا — كانوا توصلوا إلى معرفة الكواكب السبعة السيارة ، وقد قسموا الفضاء باعتبارها إلى طباق سبع ، و بقيت هذه المعرفة

---

(١) قال ابن سيده فى المخصص (جزء ١٦ صفحة ١٨١) ما نصه : "والسماء والسماءة مدار النجوم" وقدم مثله فى صفحة ٦.

وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾

متوارثة فى الأمم جيلا بعد جيل حتى زمن العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، فخوطبوا عن أمر السماء بما اعتادوا أن يتخاطبوا به فيما بينهم ، وهو أن السموات سبع ، وأن طباقها طبقة فوق طبقة . إلى هذا القدر بلغ علم الأمم فى الزمن القديم ، ولا يلزم منه أن تكون الكواكب والأجرام السماوية الكبرى فى الواقع ونفس الأمر سبعة فقط ، ولا أن يكون الفضاء كذلك سبع طبقات فقط ، بل إن الله عنده من علم السماء وعدد أجرامها وتأليف طباقها ما لم يصل إليه علم البشر ، اللهم إلا ما علموه فى العهد القديم من أمر السموات السبع كما وصفنا ، وإلا ما علموه فى العصر الحديث من وجود بعض الكواكب السيارة الأخرى ، وبعض الطبقات والمدارات الأخرى . ولا مانع أن يطلع الله البشر فى المستقبل على غير ذلك من الأجرام والطبقات ، ولكن خطاب الله للأمم ووحيه إليها إنما يكون بما تدركه عقولها ، وتلمسه حواسها ، ويبلغ إليه تصورها فى عهد إنزال الوحى ، ويكفى فى الدلالة على المطلوب .

وقوله تعالى : ﴿وجعل القمر فيهن نورا﴾ فيهن أى فى السموات السبع ، ولا يضره أن يكون القمر فى الواقع ونفس الأمر فى أدنى تلك السموات وأقرب طبقاتها إلينا لا فيها كلها ؛ لأنه أسلوب عرف التخاطب به بين أهل اللسان ؛ فهم يقولون : إن فلانا يسكن المدينة الفلانية يريدون أنه ساكن فى حى من أحيائها وجهة من جهاتها لا فى كل حى وجهة منها . وكذلك هنا مذ قال : إن القمر فى السموات أى فى مجموعها ، الصادق باستقراره فى واحدة منها ، ومثله قوله تعالى : ( شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ) مع أنه إنما أنزل فى ليلة واحدة من ليالى رمضان ، وهى ليلة القدر ، لا فى رمضان كله .

ومن مواضع العجب أن الكتاب لم يقل عن الشمس إنها جعلت فيهن أى فى السموات كما قال عن القمر إنه جعل فيهن ، وقد عرف أخيرا أن الشمس هى مركز النظام الشمسى ، وأن السيارات السابحة فى سمواتها ومداراتها تحتف بالشمس ، وتدور حولها من كل جانب ، فلم تعد الشمس بهذا الاعتبار معدودة فى السيارات السابحة فى السموات ، المرتبة طبقات طبقات . أما القمر فمعدود فيها ، وله مركز وموقع من تلك السموات .

[والسراج] آلة الاستصباح المعروفة ، وتسمى الشمس نفسها سراجا لأنها سراج النهار يستصبح بها الناس فيه كما يستصبحون بالسرج والمصابيح فى ليلهم ، ولم يسم القمر بهذ الاسم [أى

وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾

باسم سراج] لأن الارتفاق بنوره فى الليل أقل بكثير من الارتفاق بنور الشمس فى النهار، وإنما هو نور يستضاء به فى الجملة ، كما يعلم به عدد السنين والحساب ، وكما أن التعبير عن الشمس بالسراج أفاد أن نورها أشدّ وأتم وأكمل فى الانتفاع من نور القمر كذلك قوله تعالى فى الآية الأخرى: (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) أفاد ذلك أيضا ، وذلك لأن الضياء أقوى من النور فى الأعمّ الأغلب من إطلاق الكلمتين . وهذا قد يؤيد ما تقرر فى علم الفلك من أن نور الشمس ذاتى فيها ونور القمر عرضى مكتسب من نورها .

ثم رجع نوح فأمال أعناق قومه عن السماء إلى الأرض ، وحضهم على التفكر فى عجائب ما فيها من الشئون والأطوار ؛ فمن ذلك خَلْق المخاطبين أنفسهم ، وكيف سُلُّوا من تراب الأرض كما يُسَلُّ النبات ، والأصل فى معنى الإنبات إخراج الله النبات من الأرض ، أما بنو آدم فيخرجهم خالقهم من بطون أمّهاتهم أطفالا ، ثم يُنَشِّئُهم بما يغذيهم من اللحوم والنباتات إنشاء يبلغون به أشدّهم ، لكن لما كان إخراجهم وإنشاؤهم بشرا سويا إنما يتم بتناول آبائهم وأمهاتهم ثم بتناولهم هم بعد الولادة ــ عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض ــ كانوا من هذه الجهة مشابهين للنباتات التى تنمو بامتصاص غذائها من الأرض مباشرة ؛ فلذا سمّى خلقهم وإنشاءهم إنباتا . وهذا يشير إلى وحدة عالَمَىْ الحيوان والنبات واشتراكهما فى كثير من النواميس التى تتعلق بالحياة العامة ، كالتلاقح والتوالد والاقتيات والنمو والتنفس ، وتطورات أخرى من هذا القبيل ، ومن ثَمَّ قال بعض الحكماء : إن الإنسان شجر اقتلع بجذره من الأرض فمشى ودَلَفْ ، وإن الشجر إنسان غاص بقدمه فى الأرض فثبت مكانه ووقف .

فمعنى قوله (والله أنبتكم من الأرض نباتا) أنكم[1] وإن كنتم بشرا فى حقيقتكم فأنتم نبات باعتبار اتكالكم فى حياتكم الحيوانية على عناصر الأرض كاتكال النبات فى حياته النباتية عليها ؛ فالله الذى أنبتكم هذا الإنبات ، ويسر لكم من عناصر الأرض الأرزاق والأقوات ، ثم خصكم تفضلا منه وكرما بالحياة الحيوانية ، ثم زادكم كمالا بإفاضة الحياة الإنسانية ، ثم آثركم بمواهب

(١) لم أعد أكلف نفسى عناء تصحيح أمثال هذا التركيب (إنه وإن كان كذا فهو كذا) بعد أن سمعت الجاحظ فى كتابه الحيوان (س ١٤ ص ٤٦ جـ ١) يقول (لأنه وإن كان كتابا واحدا فانه كتب كثيرة) على أن النحوى الفطن لا يصعب عليه توجيهه وتطبيقه على القواعد .

ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾

النفس والعقل وسائر الحواس الظاهرة والباطنة — الإله الذى هذا مبلغ عنايته بكم ، وذاك قدر إنعامه عليكم — يجدر بكم أن تعبدوه وحده ، وترهبوا وعيده ووعده[1]

و (نباتا) مصدر [نبت]، الثلاثى، لكنه أقيم مقام مصدر [أنبت] الرباعى، وجاء تأكيدا له؛ فقيل أنبتكم نباتا مكان أنبتكم إنباتا . وقال بعض المدققين هو مصدر الثلاثى ، وجعله من نوع الاحتباك البديعى ، وقال إن أصل الكلام هكذا " والله أنبتكم من الأرض إنباتا فنبتم نباتا " فهما فعلان لكل مصدره . لكنه حذف المصدر الأول لدلالة فعله عليه ، وحذف الفعل الثانى لدلالة مصدره عليه ، وبذلك جاء الكلام موجزا فى مبناه ، موفرا وافيا فى معناه .

أما وقد ذكر نوح لقومه عجيب صنع الله فى إخراجهم من الأرض إخراج النبات فقد تمهد له السبيل إلى تذكيرهم بأمر البعث الذى كان القوم ينكرونه فقال :

﴿ ثم يعيدكم فيها ﴾ ، أى مقبورين فى الأرض بالممات ، كما أخرجكم منها مُنَشَّئين بالإنبات . ﴿ ويخرجكم إخراجا ﴾ ، أى من الأرض ثانية بالبعث بعد اللبث الطويل فيها . وأصل النزاع مع المخاطبين فى قضية الإيمان بالله التى لا يسلمون بها ، لكن نوحا لما استدل على وجوب الإيمان بما كان من غريب صنع الله فى إيجادهم مستلًّا لهم من الأرض استلال النبات — ناسب أن يستدل لهم بهذا الدليل عينه على قضية البعث وإحيائهم الحياة الثانية ، فقال لهم : إنه تعالى كما أنبتكم من تراب الأرض يعيدكم بالموت إلى ترابها ، وسيخرجكم بعد منها أحياءً للعرض والحساب ، والثواب والعقاب . وإذا تأملتم فى إنباتكم وإخراجكم من الأرض للمرة الأولى سهل عليكم تعقل إخراجكم من الأرض بعد الممات وإنباتكم منها بحسب الناموس الذى يضعه الله إذا شاء لهذا الإنبات الثانى .

(١) (ووعده) منصوب بفعل محذوف على حد ( علفتها تبنا وماء باردا ) أى وتأملوا وعده .

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

أشرنا آنفا إلى أن الإنسان إذا كان يشترك مع النبات فى بعض الخصائص والأحوال فإنه يفارقه بالمواهب السامية التى مازه الله بها ، ومن تلك المواهب حريته فى الانتقال والمشى على سطح الأرض من جهة إلى جهة ، ومن رجا إلى رجا ، ولم يخلقه سادكا (١) بمكانه كالنبات لا يبرحه إلى أن يموت . وتشبيهه بالنبات هو الذى وطأ السبيل بين يدى ذكر النعمة الجُلَّى وهى جعْل الله الأرض بساطا للبشر يتقلبون عليها كيفما شاءوا ، ما داموا خلقوا على غير خلقة النبات ، فهم يضربون فيها ذات اليمين وذات الشمال للسياحة والنزهة وطلب العلم وكسب المال .

و [ البساط ] ضرب من الطنافس معروف ، سمى بساطا لكونه يُبْسَط ويُفرش على الأرض فيجلس عليه الجالس كما يطيب له . وهكذا الأرض : بسطها الله للبشر ، ومهدها تحت مواطئ أقدامهم ؛ لأجل أن يسلكوا منها سبلا فجاجا توصلهم إلى أغراضهم ، وقضاءِ مصالحهم .

و [السبُل] جمع سبيل ، وهو الطريق ، و [الفِجاج] جمع فج ، وهو الطريق الواسع . والفج فى أصل معناه أن تباعد الناقة بين رجليها للحلب ، وتباعد الرجل بين رجليه عند إرادة المشى أو لأمر آخر ، فالطريق الفج كأنه لاتساع ما بين جانبيه قد تفَاجّ كما تَتَفاجُّ الناقة عندما تُحلب ، وبهذا الاعتبار صح أن تكون الفجاج صفة للسبل ، كأنه قيل سبلا متسعة متباعدة الأطراف ، وجاء فى كلامهم : "قطعوا إليك سبلا فجاجا ، حتى أتوك حُجَّاجا" . وأكثر ما يستعمل الفج فى الطريق الواسع بين جبلين ، لظهور التفاج والتباعد بين سفحيهما ، لكنه يستعمل أحيانا فى مطلق الطريق الواسع كما ذكرنا ، وعليه ظاهر الآية (٢) .

وصف نوح فى الآيات السابقة كيف كان يدعو قومه إلى الإيمان بالله ، وبأى الأساليب كان يحذرهم وينذرهم ويحتج عليهم ، وكيف كانت أحوالهم إزاء دعوته من الإصرار وسدّ الآذان واستغشاءِ الثياب ، مفرغا كلامه فى قالب عرض الأمر والشكوى إلى الله الذى أرسله بهذه الرسالة إليهم ، وقد انتقل فى هذه الآيات إلى ذكر نتيجة الدعوة وأنها لم تنجح فى القوم ، وبيان السبب فى عدم نجاحها ، موردا ذلك كله أيضا فى ضمن الشكوى إلى الله العالم بما كان منه ومنهم ،

(١) سدك به كفرح : لزمه ولم يفارقه ، ومنه قول الحريرى : " فسدكت بمكانى ، وجعلت شخصه قيد عيانى " .

(٢) وفى المخصص (جزء ١٠ صفحة ١٢٦) الفج والجمع الفجاج ربما كان طريقا بين حرفين مشرفين ، وربما كان طريقا عريضا ، وربما كان ضيقا ، وإذا لم يكن طريقا كان أرضا كثيرة العشب والكلأ اهـ وحرف الجبل أعلاه المحدد .

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾
وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾

و بجميع أسبابه وعلله ومصايره . لكن المخاطبين وهم قريش كانوا لا يعلمون ، فلهم من خبر هؤلاء القوم وما حل بهم من العقوبة الإلهية أكبر واعظ لو كانوا يعلمون .

يقول نوح إن قومه عصوه وانصرفوا عن سماع دعوته إلى سماع كلام رؤسائهم فاتبعوهم وأطاعوهم ، وعدل عن ذكر هؤلاء الرؤساء المتبوعين بأسمائهم إلى الكناية عنهم باسم الموصول وهو ﴿ من ﴾ ليتوصل بصلته إلى بيان سبب مقاومة الرؤساء له ، وتمكنهم من استتباع القوم وإضلالهم ، ذلك أن أولئك القادة كانوا على جانب عظيم من المال والولد ، فلهم من سعة مالهم ، وعصبية أولادهم قوة يقاومون بها نوحا ، وهم يعلمون أن إيمانهم به يجعلهم تابعين له فيأمرهم وينهاهم بما يريد فى أموالهم وأولادهم . فالايمان بنوح فى زعمهم مضيعة للمال ، ممحقة للعصبية ، مذ يرجعون خولا وأتباعا فى قومهم بعد أن كانوا سادة متبوعين . وشأنهم فى هذا شأن عظماء كل أمة دعاها داعى الحق إلى طاعته ، والعمل بنصيحته . هذا هو الخسار الذى قال نوح عليه السلام إنه أصاب عظماء قومه . ومنشؤه مالهم وولدهم ، وهم بالمال والولد تمكنوا من صرف قوم نوح عن استماع دعوته ، والإيمان بما جاء به . كانوا يتهددون أولئك الضعفاء بعصبيتهم ، وأبناء عشيرتهم ، وكانوا يجدون من المال والثراء ما يساعدهم على غرضهم ، بل ربما كانوا ينفقون من أموالهم فى شراء ذمم أولئك المساكين ، وامتلاك قلوبهم ، فيرشونهم ، ويُدلون إليهم بالصلات والهدايا ، ويقيمون لهم الولائم والمآدب . فانظر كيف توسلوا بما أوتوا من المال والولد إلى إضلال قومهم ، والتلعب بعقولهم. لا جرم أنهم ازدادوا بذلك خسارا على خسار ، وأحلوا قومهم وأنفسهم دار البوار .

هذه الطريقة التى احتذاها أولئك الرؤساء فى مقاومة نوح و إضلال قومهم كانت مكرا وخداعا : مكرا بنوح من جهة أنهم ما كانوا يطلعونه على كل ما يعملون فى السر لمقاومة دعوته ، وإحباط سعيه ، ومكرا بقومهم من جهة أنهم كانوا يخفون عنهم الحقيقة ، ويحولون بينهم وبين الإيمان بنوح والتصديق بما أتاهم به من الوحى ، مظهرين لهم أن الخير كله فيما يشيرون به عليهم ، من ترك عبادة الله والبقاء على عبادة الأصنام التى هى دين آبائهم . وهذا معنى قول نوح عليه السلام : ﴿ ومكروا مكرا كبارا ﴾ وأى مكر أكبر مما فعلوا . وهو معطوف على صلة من ، أى اتبعوا من لم

وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾

يزده ...، واتبعوا من مكروا... ، و[ كبارا ] بمعنى كبير قرئت بتشديد الباء وتخفيفها . وكلما زادت حروف الكلمة زاد معناها عظما أو شدة ، فيقال : مكر كبير وكُبَار وكبّار ، كما يقال : رجل طويل وطُوَال وطوّال ، وأمر عجيب وعُجاب وعُجّاب .

ومن طرق المكر التى كان يسلكها أولئك الرؤساء فى إضلال القوم حضهم لهم على الثبات فى عبادة معبوداتهم ، فكانوا يقولون لهم بهيئة المتنصح المخلص : ﴿ لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾

(لا تذرن) لا تدعن ولا تتركن . وكانت للقوم آلهة كثيرة لا تحصى ، أكبرها شأنا ، وأعلاها منزلة — هذه الخمسة : وَدّ وسُواع وأخواتهما . فكان الرؤساء يعمون فى النهى عن ترك الآلهة ، ثم يخصون منها هذه الخمسة بالذكر ، وهذا من شدة كفرهم ، وفرط تعنتهم فى مكرهم .

والخمسة المذكورة أسماء آلهة أو أسماء أصنام أو أسماء أسلاف صالحين للقوم كانوا يعبدونهم من دون الله . ولعبادة الأوثان فى الأمم القديمة طريقتان :

(الطريقة الأولى) مذهب الصابئة ، وأساس هذا المذهب الاعتقاد بأن فى الأجرام السماوية أرواحا متصلة بعالمنا الدنيوى اتصال عناية وتدبير ، وتبديل وتغيير ، ولما كانت الأجرام السماوية مختلفة فى أحوالها وأشكالها ، متباينة فى أطوارها وأقدارها ، وهى غائبة عنهم ، بعيدة عن مواقع أنظارهم ، وهم فى كل وقت فى حاجة إلى التبرك بها ، واستمداد المعونة من روحانياتها — رأوا أن يصطنعوا لكل منها جسما يمثله ويدنيه من متناول الفكر والتصور ، فاتخذوا الأصنام ، ونحتوا الأوثان ، وعبدوها من دون الله . ويقال إن هذا الدين — دين الصابئة — هو أقدم الأديان البشرية الباطلة على الإطلاق . وبقى حتى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقضى عليه شر قضاء ، وعلّم بدين آبائه : آدم وإدريس ونوح ، وهو عبادة الله وحده . ثم انتقل دين التوحيد من نوح إلى أولاده ، وبواسطتهم انتشر بين الأمم ، من عرب وعجم ، ولعل ودا وسواعا وبقية الخمسة التى عبدها قوم نوح كانت أصناما منحوتة على اسم بعض الكواكب ، فإن منها ( نسرا ) وهو اسم لكوكبين سماويين : يقال لأحدهما "النسر الواقع" وللآخر "النسر الطائر" . وللأشوريين خلفاء قوم نوح إله

يســمونه " نسروخ " أى النسر العظيم ، وكان له هيكل فى عاصمتهم " نينوى " وإنك ترى فى آثارهم اليوم صورة إنسان برأس نسر وجناحيه ، فلعله رمز إلى ذلك الإله .

(والطريقة الثانية) لعبادة الأوثان هى قيام أفراد من البشر ينبغون فى نبوة أو كهانة أو حكمة أو بطولة أو خلق من الأخلاق العالية بصورة غير معهودة فى الناس الآخرين ، فيفتتن بهم أقوامهم ويرون أن هـذا التفوق والنبوغ لم يكن إلا لحلول روح إلهى فيهم ، فيعبدونهم فى حيـاتهم ، وفى الأعم الأغلب بعد مماتهم ، ثم يتخذون على مثالهم صورا أو أصناما أو موائل أخرى يذْكرونهم بها ، ويتقربون بالنذور والبخور والصلوات وضروب العبادات إليها على نحو ما يفعل الصابئة فى عبادة الكواكب ، وقد ضَرِيت عبادة النوابغ بجرانها فى جنبات الأرض ، فلم يعد يقوى على محوها الدين السماوى نفسه ، وقد لا يقوى إلا بمعونة العـلم ، وانفكاك العقل من قيود الوهم . ولعل وثنية قوم نوح وعبادتهم لود وسواع كانت من هذا القبيل ، وقد بقى لعبادة هذه الأصنام أثر فى جزيرة العرب أو فى بلاد اليمن خاصة حتى زمن البعثة المحمدية ، فكان ( ودّ ) لبنى كلب بدومة الجندل ، وهو على صورة رجل . و ( سواع ) لهَمْدانَ أو هُذيل ، وكان على صورة امرأة و ( يغوث ) لَمَذْحِج أو غطيف من مراد فى سبأ ، وكان على صـورة امرأة . و ( يعوق ) لمراد أو لهمدان ، وهو على صورة فرس . و ( نسر ) لحِميْرَ أو لذى كَلَاع من حمير ، وهو على صورة نسر . وكان العرب يسمون أولادهم بعبد ودّ ، وبعبد يغوث .

ومن تأمل ما قلناه فى مناشئ ظهور الوثنية فى البشر فهم السر فى كون الدين الإسلامى يحرم إقامة الصور ونصب التماثيل وتشييد القبور وتجصيصها على رمم العظماء ، وفى حديث على رضى الله عنه : " أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لى : " لا تدع صنما إلا طمسته ، ولا قبرا إلا سويته " ا هـ ، فإن الوثنيين كانوا يتخذون من موائل القبور والأصنام ذكرى لرجالهم الصالحين وليست ذكراهم لهم ذكرى عظة واعتبار ، وإنما هى ذكرى استمداد أسرار ، واقتباس أنوار ، واستغراق واستحضار ، واسترزاق واستمطار ، والتمـاس منافع واستكفاء أضرار ، فسدّ دين الإسلام الذريعة بتحريم هذه الموائل خشية أن تسترهب ضعفاء العقول وتستهويهم ، ومن مزالق الوثنية تقربهم وتدنيهم . فلله الإسلام ما أعدله فيما شرع وحكم ! وما أوضح نهجه فيما خط لنا من الهداية ورسم !!

وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾

وقوله : ﴿وقد أضلوا كثيرا﴾ من تمة كلام نوح عليه السلام وشكواه إلى ربه ما لاقى من أولئك الرؤساء الذين مكروا بقومهم ، وزينوا لهم عبادة الأوثان ؛ فهو يقول : إن هؤلاء الرؤساء يارب كانوا من قبل ( قد أضلوا ) خلقا ( كثيرا ) غير هؤلاء القوم المساكين الذين أدعوهم إلى الإيمان اليوم ، أو أنه يريد أن أولئك الرؤساء بما توفر لديهم من قوة المال والولد والمكر والتسويل أضلوا وما زالوا يضلون خلقا كثيرا . وفى جملة من أضلوا قومى هؤلاء .

وكأن نوحا عليه السلام انتبه إلى أن صدور هذه الشكوى منه إلى ربه ربما أوهم غفلته أو ذهوله عن سنن الله ومشيئته فى خلقه ، فختم شكواه بقوله : ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالا﴾ .

وظاهر قوله : ( لا تزد ) الدعاء إلى الله أن يزيد الظالمين ضلالا . وهذا مستبعد من نوح أبى الأنبياء الذين هم مثال الرفق بالبشر والرحمة لهم والعطف عليهم ، وإنما هو فى الظاهر دعاء وطلب ، وفى المعنى إخبار عن استمرار مشيئته تعالى فى خلقه عاملة ؛ وبقاء سننه مطردة شاملة ، لا تشذ ولا تتخلف ، كأنه يقول : إنك يارب فى عدم هدايتك قومى إلى الإيمان بك إنما تتم مشيئتك القديمة ، وتنفذ سنتك الحكيمة ؛ فإن قومى الذين ظلموا بعدولهم عن محجة الحق سيبقون فى ضلال عنها ما داموا فى ظلمهم وتعسفهم ، بل إنهم كلما ازدادوا إيغالا فى هذا الطريق الذى أخذوا فيه ازدادوا ضلالا وبعدا عن محجة الحق ، شأن الذى ينحرف عن رأس الجادة ، فإنه كلما أوغل فى الناشطة[1] التى سلكها ابتعد عن الطريق الأعظم ، حتى يتورد حتفه . فهذا كما ترى سنة إلهية ركب الله عليها هذا الكون ؛ فلا تخالف أمة من الأمم أمر الله ، ولا تُدَابر سَنَنَه ، ولا تستخف بنواميسه — حتى تضل عن طريق السعادة ثم تهلك . وعلى العكس الأمة التى تعمل بأمر الله ، وتراعى سننه ونواميسه . فنوح عليه السلام يأسف لكون أمته من الفريق الأول ؛ فهو بعد أن وصف حالها ، وندب مآلها — عاد فقال : لِتَدُمْ مشيئتُك يارب ولتنفذ إرادتك ، ولتستمر سنتك .

(١) هى الطريق ينشعب من الطريق الأعظم يمنة أو يسرة .

أمّا الروايات والأساطير الأخرى المتعلقة بهــذا الطوفان فما لا يجب علينا الإيمان به إيمانا جازما ، وإنما نكل أمره إلى الله تعــالى وإلى التحقيق العلمى ، حتى إن مسألة شمول الطوفان لجميع أقسام الأرض وعدم شموله لم يرد عنها فى الكتاب نص قطعى.وكلمة (أرض)فى قوله تعالى : ( وقيل يا أرض ابلعى ماءك ) ليست نصا فى الدلالة على جميع أجزاء سطح الأرض ، وإنما هى تستعمل أحيانا كثيرة استعمالا فصيحا فى الجهة الواحدة من جهات الأرض،ففىسورة يوسف : ( قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ) . (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ) والمراد بالأرض فى الموضعين أرض مصر لا الكرة الأرضية كلهــا . وليس هــذا مماراة منا فى صلاحية قدرة الله أن يعمّ سطحّ الأرض كلّه بالطوفان ، وإنما نحب أن نقف فى العقائد خاصة على ما جاء فى صحيح النقل ، وارتاح إليه صريح العقل .

هذا ولم تنفرد الكتب السماوية بذكر حادثة الطوفان فقد ورد ذكرها أيضا فى كتب الصين واليونان، وهى معروفة عند أميركا الشمالية والجنوبية . وقال بعضهم: إنه وجد أثركارثة الطوفان فى جميع الأقطار وفى جميع تقاليد الأمم ماعدا السودان فإنه ليس فى بلادهم ولا فى تقاليدهم مايدل على حدوثه . وذكرت الحادثة فى آثار الاشوريين ؛ فقــد عثر على صحيفة أشورية تصف تلك الحادثة ، وكأنّ الكلام فيها وارد على لسان نوح عليه السلام مذ استقرت السفينة على الجودى فأرسل الغراب فلم يعد ، ثم أرسل الحمامة فعادت مبشرة بانكشاف اليابسة ، كما جاء مفصلا فى التوراة، وهاك ترجمة ما قالته الصحيفة الأشورية :

” فى اليوم السابع أرسلتُ الحمــامة ، فغابت ولم تجد مقرا فرجَعَت ، ثم أرسلتُ سنونوةَ فغابت فلم تجد مقرا فرجَعَت ، ثم أرسلتُ غرابا فغاب ورأى انخفاض المــاء فأكل وسبح وتاه ولم يعد ، ثم أرسلتُ الحيوانات إلى جهات الرياح الأربع ، وسكبتُ سكيبة،ثم بنيتُ مذبحا على قنة الجبل ، وقطعتُ سبعةَ أعشاب ، وتحتها وضعتُ صومر[1] وصنوبر وسمْقر، فاجتمع الآلهة عند فوحان الرائحة : اجتمعت كالذباب عند الذبيحة“ اه

ولا يخفى ما فى الكلام الأخير من المنافاة لآداب الوحى الصحيح .

(١) شجر له ثمر كالبلوط .

فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾

و [النار] إذا أطلقت معرفة بالألف واللام أريد بها دار العذاب المعدّة للأشرار بعد البعث والحساب. فإيراد كلمة [نار] فى قوله ﴿فأدخلوا نارا﴾ منكرة مع عطف الفعل بالفاء التى تفيد التعقيب من دون مهلة ولا تراخ — قد يشعر بأن المراد بهذه النار التى أدخلها الله قوم نوح عقب الطوفان — ليست هى نار دار العذاب، وإنما هى نار أخرى، قيل هى عذاب القبر، وروى عن الضحاك: أنهم كانوا يُغرقون من جانب ويُحرقون من جانب، أولعل المراد بالنار التى أدخلوها، وأسلمهم الغرق إليها — نار الخزى والخذلان، نار الذل والهوان، نار ألم النفس وعذاب الوجدان، نار تتعذب بها كل أمة خالفت أمر ربها، وتلاعبت بشرائع دينها، واستمرت فى عنادها وغشمرتها حتى تقلص ظلها، وتشتت شملها، وأصبحت طعمة للطامعين، وفَقْعًا [1] بقَرْقَرةٍ، يدوسه السيد والقطين، على أنه لا مانع من أن يراد بتلك النار نار العذاب الأخروى، ويكون تنكيرها لتهويل أمرها، كما يكون التعقيب بالفاء لإفادة قرب الإدخال وتحققه، وكل آت مهما بعد قريب. وهؤلاء المكذبون الذين أغرقوا فأحرقوا لم يجدوا لهم أنصارا ينصرونهم مما أراده الله بهم من الإغراق والإحراق، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فلم يجدوا لهم الخ﴾.

ثم إن نوحا عليه السلام لما رأى قومه غرقى وقد خلت منهم الدار وعفت الآثار قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾.

[ديار] كلمة تقولها العرب فى سياق النفى لإفادة تأكيد نفى وجود أحد من الناس. ومثلها قولهم "ما فى الدار صافر، ولا فيها نافخ ضرمة" وأصل ديار ديوار فيعال من دار فى الدار إذا ذهب وجاء فيها. يقول ما فيها متجول، وقيل إن ديارا مشتقة من الدار نفسها، فمعنى ديار صاحب دار ملازم لها مقيم فيها، كما يقال مثلا "جمال" لصاحب الجمال و "كرام" لصاحب الكرم.

وقول نوح (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) يريد (من الكافرين) الذين ساروا على سيرة قومى، فليس المراد الدعاء عليهم بالاستئصال والاجتياح، كيف وقد أصبحوا صرعى

(١) الفقع ضرب ردىء من الكمأة يكون فى القرقرة (وهى الأرض المنخفضة) لا يؤبه به، ولا يجنيه أحد، وإنما تدوسه الأقدام، فضرب مثلا للستذل الممتهن من الناس.

إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾

تحت مواقع بصره ، وقد أراد بالدعاء هنا ما أراده فى قوله السابق ( ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ) ، فتكون آية ( رب لا تذر الخ ) شاهدا مؤيدا للمعنى الذى قلناه فى آية ( ولا تزد الخ ) من أن نوحا عليه السلام أورد الخبر عما أودعه الله هذا الكون من السنن التى لا تخلف فى الأمم الشاردة عن أمره — فى صورة الدعاء، فقوله (لا تزد) و ( لا تذر ) معناهما لا تفعل يارب إلا ما مضت عليه سنتك ، وسبقت به مشيئتك ، وهو بذلك يعلن التسليم إليه تعالى ، والاعتراف بأن ما قضاه فى خلقه عدل ، وأن ما شاءه فيهم ماض نافذ لا معقب له .

ثم أتبع ذلك ببيان حكمة الله فى إهلاك الكافرين فقال: ﴿إنك إن تذرهم﴾ أى إن تدع الأشرار يتمتعون بسلطتهم وسطوتهم ، ويتصرفون تصرف المستبد المطلق فى ارتكاب المفاسد والمناكر ، ومخالفة شريعة العدل ، ونواميس الحق — ﴿ يضلوا عبادك ﴾ تستشر فتنتهم ، ويعظم فسادهم ، ويسر إلى بقية العباد المطيفين بهم ، المخالطين لهم ، فيفسدوا ويضلوا عن أمرك ومتابعة وحيك ، ولا سيما إذا تأهل الشر والفساد فى أولئك الأشرار ، وأصبح ملكة راسخة فى نفوسهم ، فإن خبثهم وفساد أخلاقهم ينتقل بالوراثة إلى أولادهم وذراريهم ، فصار من مقتضى حكمتك يارب محقهم واستئصالهم جملة ، فإنك إن تركتهم يلدون وينسلون — نموا وكثروا ﴿ ولا يلدوا ﴾ إذا ولدوا وأعقبوا ﴿ إلا فاجرا كفارا ﴾ مثلهم .

و[الفجور] بمعنى الفسوق والعدوان وهو تجاوز الشرائع والحدود التى أمر الله بالوقوف عندها.

وهنا مسألة وهى أن ذرارى قوم نوح الذين غرقوا هل هلكوا معهم ؟ وكيف أهلكوا وهم لم يجنوا ذنبا ولم يقترفوا خطيئة من خطيئات آبائهم ؟

الظاهر أنهم هلكوا معهم ؛ لأن الكتاب قال فيهم (إنهم كانوا قوم سَوْء فأغرقناهم أجمعين ) وقال نوح : ( رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ) الآية .

ولو قال قائل : إن هذا التعميم إنما هو بالنسبة إلى الكبار المكذبين مرتكبي الخطايا ، أما صغارهم فالكتاب سكت عنهم، فنسكت معه ولانخوض فى أمرهم — ما كان فى ذلك شاذا ولانابيا .

وما يدرينا أن يكون تعالى قد أمد أولئك الأطفال بلطفه وتدبيره ، ويسر لهم بعض أسباب النجاة ، وكم لله من أمثالها ، على أنه تعالى إن كان أهلك الأطفال المعصومين ، مع الكبار المجرمين — فإنه فاعل مختار لا يسأل عما يفعل ، نعم قد تخفى علينا نحن الحكمة فى ذلك، وخفاؤها

لا ينفي وجودها ، وإن في الأوبئة والطواعين التي تلم بالبشر فتستأصلهم مع ذراريهم استئصالا وفي الزلازل التي تخسف الأرض وتخددها فتبتلعهم جميعا ابتلاعا ، وفي البراكين التي تثور وتهيج فتقذف الحمم والرماد بحيث تطمر البلاد التي حولها ، وتدفن تحتها سكانها كلهم كما روى لنا التاريخ عن المدينتين الرومانيتين "بومبي" و "هركليوم" — إن في كل ذلك مشابهة ومحاكاة بل نسخة مطابقة لما وقع بقوم نوح كبارهم وصغارهم من الهلاك ، ويقال في تعليل هلاك هؤلاء ما قيل في تعليل هلاك أولئك .

على أن النفس قد تتساءل هذا السؤال نفسه في الصغار الذين يموتون بآجالهم قبل أن يبلغوا سن كمالهم ، وقد رأيت يوما امرأة تتحسر على موت صغير لها ، أمضها فقده ، وأسقمها بعده ، فسمعتها تقول وقد شخصت بعينيها إلى السماء مغرورقتين بالدموع : "يا رب ما دمت تريد أن تسلبنيه قبل أن تمتعني فيه فلماذا أعطيتنيه ؟ "

هذا وأمثاله من العُقد التي تتعلق بمبتدإ هذه الكائنات ومنتهاها ، والحكمة في محوها بعد أن خلقها وسوّاها . بل هو لعمري من القدر الذي أدّبنا نبينا صلى الله عليه وسلم بترك الخوض فيه : أخرج الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمرّ وجهه الشريف كأنما فُقئ في وجنتيه الرمان ، ثم قال أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه" .

وكتب المقتطف (صفحة٤٩٨ مجلد ٦١) بعنوان "الحكمة الفائقة" جوابا على سؤال جاءه من البرازيل وهو "جاء في الإنجيل أنه حينما ولد المسيح طلب الملك هيرودس أن يحضروه إليه ، ولما لم يجده أمر أن يقتل كل الأطفال الذين عمرهم نحو سنة فكان كذلك ، فلماذا لم ينقذهم المسيح؟" فأجاب المقتطف بقوله : "لا نعلم ، وفي الكون أمور كثيرة يظهر في بادئ الأمر أنها مناقضة لقوانين العدل والاقتصاد حتى كأن الكون متروك لا مدبر له ، فالسمكة تبيض مليون بيضة وقد تنقف كلها ، ولكن لا يعيش من أولادها إلا العدد القليل ؛ وأشجار البرية تبذر الشجرة منها ألوفا من البذور لحفظ نوعها ، وقد لا تزرع واحدة من بذورها ، ولكن إذا أمعنا النظر في تركيب جسم السمكة وأوراق الشجرة وأزهارها رأينا من الحكمة الفائقة ما يدهش العقول ونضطر أن نسلم بوجود حكمة فائقة في إكثار بيض السمكة وبذر الشجرة ولو لم يعش منها شيء" اهـ .

رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

كأن نوحا عليه السلام يقول : أما وقد أهلكت يا رب الظالمين بما كسبوا من الخطيئات، وكذبوا بآياتك البينات ، وكان إهلاكك لهم عدلا ، وتنكيلك بهم حقا — فمن عدلك المنتظر ، وكرمك المؤمل — أن تغفر لفريق المؤمنين الذين أقروا بتوحيدك ، واستمسكوا بعرا دينك .

و[ الغفر ] الستر والصفح عن الذنب ، فالمؤمنون مهما تحرّوا الحق والعمل الصالح قد يفرط منهم ما يؤاخذون عليه ، فهم يبتهلون إلى الله — كما وفقهم للإيمان والتوحيد — أن يغفر لهم ما ربما يبدر منهم مما لا يرضيه تعالى ؛ فبدأ نوح بنفسه ، ثم ثنى بوالديه لعظيم حقهما عليه ، وقد مر أن اسم أبيه "لامك بن متوشالح"، أما اسم أمه فهو "شمخا بنت أنوش"، ثم ثلث بمن دخل بيته مؤمنا ، وعنى بهم أولاده وأزواج أولاده الذين كانوا يدخلون بيته مشاركين له فى معيشته وعبادة ربه ، وفى التوراة أنه لم يكن معه فى السفينة سوى زوجه وأولاده الثلاثة وأزواجهم الثلاث ثم ختم دعاءه بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات جملة واحدة ، ويومئ هذا من طرف خفى إلى أن هناك مؤمنين ومؤمنات غير جماعة بيته الذين نجوا معه فى السفينة ، وعلى هذا فالطوفان لم يعمّ الأرض كلها ، ويكون فى بعض جهاتها البعيدة مؤمنون ومؤمنات لم يغرقوا ، وقد دعا لهم نوح مع أهل بيته المذكورين ، أو يقال إن المراد بالمؤمنين والمؤمنات فى دعاء نوح من وجدوا فى الماضى أو سيوجدون فى المستقبل متى تناسل أولاده وتكاثروا وانتشروا على وجه الأرض .

ونوح عليه السلام لم ينس أن المؤمنين والمؤمنات عرضة لأن يظلموا ويعتدوا ، ويتجاوزوا حدود الشريعة ، ويعملوا بغير طاعة الله ، فهو بعد أن طلب من الله المغفرة لفريق المؤمنين عاد فقال : أما إذا أحد منا معشر المؤمنين ظلم وحاد عن محجة الصواب ، وترك العمل الصالح وعثا فى الأرض فسادا — فلا تتركه يارب من معاملتك له بالعدل كما عاملت أولئك المكذبين المغرقين فتبّره وأهلكه ، بل زده تبارا وهلاكا كما أهلكتهم .

وهذا من نوح عليه السلام إيقاظ وتنبيه لأهله وولده وذويه وسائر من آمن بالله من الناس يحذرهم بطش الله وسخطه ، وانتقامه ممن خالف أوامره ، ونبذ العمل بشرائعه العادلة .

ولا ريب أن إغفال الإيمان عن التعهد بالعمل الصالح وممارسة الفضائل — يميته من الصدر ويغشّى الرين على القلب بالتدريج كما ورد فى الحديث ، فتحق الكلمة على من هذا شأنه ، فيأخذه الله بالعذاب كما أخذ أولئك المغرقين من قوم نوح ، فنوح يقول لقومه : لا تظنوا أن الله نجاكم لذاتكم ، وإنما نجاكم لإيمانكم وعملكم الصالح ، فاحرصوا عليهما ، واجتهدوا فى تقويتهما وتنميتهما وإلا حل بكم من الهلاك والتبار ، ما حل بأولئك المغرقين الفجار .

و[ التبار ] من تبر كفرح إذا هلك ، وتبره غيره كضربه وتبّره أهلكه ، فتبار اسم مصدر ، يقال : تبره تتبيرا وتبارا ، كما يقال كلمه تكليما وكلاما ، وودّعه توديعا ووداعا .